

**صورة المدينة الإسلامية لدى الرحالة الأوروبيين
"رحلة بيرنير إلى مدينة دلهي في القرن السابع عشر
الميلادي نموذجاً"**

الدكتور أحمد محمد الجوارنة

قسم التاريخ

جامعة اليرموك

صورة المدينة الإسلامية لدى الرحالة الأوروبيين "رحلة بيرنير إلى مدينة دلهي في القرن السابع عشر الميلادي نموذجاً"

الدكتور أحمد محمد الجوارنة

قسم التاريخ

جامعة اليرموك

لا شك في أن تاريخ المدينة في الإسلام حافل بالعديد من جوانب التطور ومظاهر التمدن التي تفوقت على العديد من المدن العالمية، من ناحية التنظيم وفنون العمارة وتطور المؤسسات، وهو ما يعكس قوة الدولة الإسلامية من ناحية، ومن ناحية أخرى يكشف عن الإمكانيات الاقتصادية الكبيرة التي كانت تتمتع بها معظم الدول الإسلامية، وإذا أظهر الباحثون والمؤرخون اهتمامهم بدراسة مختلف الجوانب الحياتية للمدينة الإسلامية في المغرب العربي ومشرقه، وفي عصور مختلفة، فإن ذلك الاهتمام يتلشى تماماً حينما يتعلق البحث في المدينة الإسلامية في الهند وأفغانستان والعديد من المدن الواقعة في أقاليم آسية الوسطى التي كانت تتمتع بازدهار حضاري قلما نجده في المدن العربية الأخرى.

كما نلاحظ وتحديداً في القرن السابع عشر الميلادي، قلة اهتمام الجغرافيين والرحالة العرب والمسلمين بزيارة المدن الكبرى في الهند، كمدينتي دلهي وأكرا، على الرغم من أنها كانت من أكثر مدن العالم نشاطاً وازدهاراً في تلك الفترة الزمنية، والتي كانت

الهند تخضع لسيطرة المغول المسلمين، وهو مؤشر على تراجع الاهتمامات الجغرافية والعلمية عند الرحالة العرب، وإحجامهم عن دراسة واقع المدينة الإسلامية عموماً، والمدينة الإسلامية في الهند على وجه الخصوص، بينما في المقابل، نجد الهند وبقية المناطق الإسلامية الأخرى تجتذب الرحالة الأوربيين، ممن هم في مستوى علمي رفيع، وذلك للاطلاع على أحوال المسلمين والتعرف على واقع المدينة الإسلامية، وقبل ذلك كله، دراسة أحوال المسلمين السياسية والعمرانية والاقتصادية، دراسة معمقة، بهدف الوصول إلى تحقيق غاياتهم المنشودة في بسط سيطرتهم على المناطق الإسلامية لاسيما بعد الضعف والانحطاط الذي منيت به الدولة العربية في الأندلس، حيث أعقب ذلك، اندفاع أوروبي كبير للتعرف على الشرق والسيطرة عليه، وتمثل ذلك بالمستكشفين الجغرافيين أمثال هنري الملاح وفاسكو دي قاما.

فالهند التي خضعت لحكم المغول المسلمين (١٥٢٦-١٨٥٧م)، تمتعت بقوة سياسية واقتصادية كبيرة في ذلك الوقت، وبسبب ازدهار دولة المغول ومدنها الكبرى، فقد استقطبت اهتمام العشرات من الرحالة الأوربيين الذين قدموا من بلدان مختلفة، كفرنسة وإيطالية والبرتغال وإنكلترا وألمانية، تشدهم جميعاً الرغبة الملحة لاستكشاف واقع حياة المسلمين في الهند، والتعرف على منتجاتها وسلعها وأسواقها التجارية، بالإضافة إلى حرصهم على التقرب من أباطرة المغول، طمعاً في رعايتهم وعطاياهم الجزلة، ونجد من الضرورة بمكان، وقبل أن نتعرف على الرحالة الفرنسي "بيرنير" التعرف على أبرز الرحالة الأوربيين الذين وصلوا الهند بصفات مختلفة، منهم على شكل رحلات استطلاعية، ومنهم على شكل بعثات سياسية من بلادهم إلى بلاط المغول، ومنهم على شكل بعثات تبشيرية بصورة غير معلنة.

- الرحالة البرتغالي "أدولف مونسيرات **Adolf Antony Monserrate**" الذي دون ملاحظاته عن الهند وأطلق عليها اسم "التعليقات **The Commentries**"، حيث ترجمها من البرتغالية إلى اللغة الإنكليزية المؤرخ "هويلاند **Hoyland**"،

والمؤرخ الهندي "بينرجي Benerji"، وتم نشر الرحلة في إكسفورد سنة ١٩٢٢م، وقد كان "مونسيرات" أول مبعوث سياسي برتغالي إلى بلاط المغول المسلمين في عهد الإمبراطور "جلال الدين أكبر"، ومكث سفيراً للبرتغال في بلاط المغول من عام ١٥٨٠ إلى عام ١٥٨٢م^(١).

• الرحالة الإنكليزي، "سير توماس رو Sir Tomas Roe"، مؤلف الرحلة الشهيرة بـ"رحلة إلى الهند في القرن السابع عشر، Travel in India in the Seventeenth Century"، نشرت الرحلة في لندن سنة ١٨٧٣م، في حين كان "توماس رو" سفيراً للملك البريطاني "جيمس James"، إلى بلاط الإمبراطور المغولي "جهانكير"، وذلك من سنة ١٦١٥م وحتى عام ١٦١٧م^(٢).

• الرحالة الهولندي "فرانكويس بيلسرت Francoys Pelsaert"، وضع رحلة بعنوان: "هند جهانكير Jahangirs India"، حيث قام بنقلها إلى الإنكليزية المؤرخ الإنكليزي الشهير "مورلاند Morland"، ونشرت في مدينة "كامبرج Cambridge"، سنة ١٩٢٥م، أما بالنسبة للرحالة "بيلسرت" فقد وصل سنة ١٦٢٠م، باعتباره مديراً للمصنع الهولندي في مدينة "أكرا Agra"، وقد قضى معظم أيامه مسؤولاً عن ذلك المصنع، ثم عاد إلى هولندا في نهاية سنة ١٦٢٧م، وقد اشتهرت رحلته بـ"الاحتجاج Remonstate"، وتعتبر الرحلة سجلاً حافلاً، وصف فيه "دلهي وأكرا" وكشمير ولاهور، وغيرها من المدن الإسلامية في الهند، كما اهتم بذكر الجوانب الاقتصادية والاجتماعية^(٣).

• الرحالة الإيطالي: ببيترو ديلافالي Peitra Della Valle"، صاحب الرحلة التي اشتهرت باسمه، وهي بعنوان: "رحلة ببيترو ديلافالي في بلاد الهند"، قام بترجمتها إلى الإنكليزية، "هافرز Havers"، و"إدوارد غري Gray"، وذلك سنة ١٨٩٢م، وقد زار "فالبي" مصر والجزيرة العربية وبلاد الشام، ثم وصل إلى ميناء "سوارت"

في الهند سنة ١٦٢٣م، ومكث في الهند إلى سنة ١٦٢٧م، وفيها قام بعدة زيارات إلى موانئ الهند الجنوبية^(٤).

• الرحالة الألماني "جون ألبرت فون ماتديلسوا Mandelso"، مؤلف كتاب "رحلات هاري Harriers Travels"، وقد وصل الرحالة الألماني إلى ميناء سوارت سنة ١٦٣٨م، وغادرها سنة ١٦٣٩م، طاف خلالها بمدن الهند الكبرى، كمدينة دلهي وأكرا وكامباي ولاهور، وسجل انطباعاته عن تلك المدن وأسواقها^(٥).

• الرحالة الإنكليزي "بيتر ماتدي Petre Mundu"، حيث وصل إلى الهند سنة ١٦٢٨م، عن طريق ميناء "سوارت" البحري، وفي سنة ١٦٣٠م، عيّن في مصنع "أكرا" ومكث هناك ثماني سنوات وذلك حتى سنة ١٦٣٦م، واشتهرت رحلته إلى الهند بـ "رحلات بيتر ماندي في الهند وأوروبا وآسيا ١٦٠٨-١٦٦٧م

"Travels of Peter Mundy in India in Europe and Asia, 1608-1667"

وقد نشر هذه الرحلة تيمبل Temple، وذلك سنة ١٩١٤م^(٦).

• الرحالة الفرنسي "جين تافرنير Jean Tavernier"، وقد زار الهند سنة ١٦٤٠م، واستطاع خلال رحلته وتجواله في أرض الهند أن يشاهد معظم مدن الهند، لاسيما الكبرى منها، كدلهي وأكرا ولاهور وغيرها، كما أصبح صديقاً للرحالة الفرنسي "بيرنير" ورافقه إلى إقليم البنغال^(٧)، وقد قام المؤرخ "بول" بترجمة الرحلة إلى الإنكليزية، وحملت العنوان: "رحلات في الهند Travels in India"، وأصدرها في لندن سنة ١٨٩٩م^(٨).

• الرحالة الفرنسي "نيكولا مانوشي Niccola Manucci"، مؤلف كتاب "تاريخ المغول (١٦٥٣-١٧٠٨م) Storia du Mogor"، في أربعة مجلدات، ترجم الكتاب إلى اللغة الإنكليزية المؤرخ "وليام إرفن William Irvine"، ونشره في

لندن سنة ١٩٠٧م^(٩)، قضى هذا الرحالة معظم أيام حياته في الهند، ودخل خدمة الأمير المغولي "دارا شيكوه" ابن الإمبراطور "شاهجهان"، ثم دخل في خدمة الأمير "شاه عالم" ابن "أورانجزيب" سنة ١٦٧٨م، وتوفي سنة ١٧١٧م^(١٠).

هؤلاء هم الرحالة الأوروبيين الذين وفدوا إلى الهند في القرن السابع عشر، وهي فترة تعتبر من أكثر فترات الحكم الإسلامي ازدهاراً ونفوذاً، حيث ترك لنا أولئك الرحالة الأجانب، الكثير من الوثائق والسجلات الحافلة بالمعلومات التاريخية والثقافية المتصلة بتاريخ المسلمين في الهند، بينما الرحالة الفرنسي "بيرنير"، الذي عزمنا على دراسة المدينة الإسلامية في الهند (دلهي وأكرا) من خلال رحلته الشهيرة إلى إمبراطورية المغول في الهند، فقد شملت رحلته على حقبة تاريخية هامة من حقب التاريخ المغولي في الهند، حيث كانت مرحلة تحول وانتقال من منهج سياسي إلى منهج سياسي آخر، انتقلت فيه إمبراطورية المغول بشكل جذري إلى مرحلة جديدة، فقد انفرد "بيرنير" بتدوين مجريات الأحداث التي وقعت في الهند ما بين سنة ١٦٥٦م ولغاية ١٦٦٨م، من عهد الإمبراطور المغولي "محي الدين أورانجزيب"، كالأحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والإدارية والعمرانية وغيرها.

التعريف بالرحالة ورحلته

تأتي رحلة الفرنسي "بيرنير" لتحتل مركزاً هاماً بين الرحلات الأخرى، وإذا تمتعت تلك الرحلات بأهمية تاريخية وعلمية كبيرة، فإن رحلة "بيرنير" تفوقت عليهما في جوانب مختلفة، إذ إنها درست واقع المدينة الإسلامية في الهند بشكل تفصيلي ودقيق، كما أنها عالجت الجوانب الاجتماعية المختلفة، الأمر الذي أعطى رحلة "بيرنير" العديد من المزايا على غيرها من الرحلات على أهمية تلك الرحلات، فـ "رحلة في إمبراطورية المغول في الهند" التي قام بها "بيرنير" من سنة ١٦٥٦م لغاية ١٦٦٨م، تعتبر سجل تاريخي ووثائقي خالد لتاريخ المغول المسلمين في الهند، فقد حازت على شهرة عالمية كبيرة، وأصبحت محط اهتمام الباحثين والمختصين في تاريخ المغول في

الهند سواء عند المؤرخين الهنود أو هند غيرهم من المؤرخين، وقبل الحديث عن الرسائل التي شملها "بيرنير" في رحلته، واختص فيها بوصف مدينة دلهي، ينبغي علينا التوقف عند شخصية الرحالة المذكور، علماً بأن المادة العلمية المتعلقة بحياة وسرة "بيرنير" مأخوذة في معظمها من المستشرق الإنكليزي "فنتست سمت Vincent Smith"، فقد أعطانا صورة مضيئة ومتكاملة عن حياة ذلك الرحالة الفرنسي الشهير، حيث أضفى على دراسته لرحلة بيرنير العديد من الفوائد العلمية والتاريخية الهامة والمفيدة، والتي لولاها لما أمكننا التعرف على شخصية "بيرنير" مطلقاً.

ولد الرحالة الفرنسي "فرانسيس بيرنير Francois Bernier"، في "جو Joue" في فرنسا، وذلك ما بين (٢٥-٢٦ أيلول سنة ١٦٢٠م)، لوالدين مزارعين، وقد بدأت رحلاته في شمال ألمانيا وبولندة وإيطالية وسويسرا ما بين (١٦٤٧-١٦٥٠م)^(١١)، ثم في عام ١٦٥٢م، استطاع اجتياز امتحان "علم وظائف الأعضاء Physiology"، في جامعة "مونتييلار Montpellier" كما اجتاز امتحان الرخصة في الطب، ومنح شهادة الطب، ثم رجع إلى باريس، وفي العام ١٦٥٤م، قام بزيارة مصر ومكث في القاهرة عاماً كاملاً، ثم أبحر عبر السويس إلى ميناء جدة، ثم إلى مكة المكرمة، ثم إلى ميناء "سوارت" على شواطئ الهند الغربية، وفي العام ١٦٥٩م، أجبر على الانضمام إلى جيش الأمير "دارا شيكوه" ابن "شاهجهان"، ليصبح طبيبه الخاص، حيث التحق به في مدينة أحمد آباد^(١٢).

وبعدما وصل إلى مدينة دلهي، في الأول من شهر تموز سنة ١٦٦٣م، وهي عاصمة الإمبراطورية المغولية يومذاك، قام بتدوين أول رسالة إلى صديقه "فيير Vayer" في فرنسا، سجل له فيها انطباعاته الأولى حول الهند ودولة المغول، ونلاحظ هنا، أن "بيرنير" لم يمكث طويلاً في دلهي، إذ بقي فيها سنة واحدة، وذلك لغاية سنة ١٦٦٤م^(١٣)، حيث انتقل إلى مدينة "لاهور"، حاضرة إقليم البنجاب في (٢٥ شباط ١٦٦٥م)، ومن "لاهور" ارتحل إلى إقليم البنغال، ومنها سنة ١٦٦٦م إلى إقليم

"كولكنده" التي وصلها عام ١٦٦٧م، ثم غادرها متوجهاً إلى "شيراز" الإيرانية، وفي سنة ١٦٦٩م، حط برحله في ميناء "مرسيلية" الإيطالي، وفي سنة ١٦٧٠م، أمر ملك فرنسا بطباعة رحلته ونشرها، ثم في سنة ١٦٨٥م، قام بزيارة إلى بريطانيا، وتوفي أخيراً في مدينة باريس في (٢٢ أيلول ١٦٨٨م)^(١٤).

حازت رحلة بيرنير على شهرة كبيرة، نظراً لما تحتويه من معلومات تاريخية مهمة تتعلق بتاريخ إمبراطورية كبيرة وبلاد غنية بالثروات، الأمر الذي جعل المؤرخين والمتقنين بشكل عام يتلقفوا هذه الرحلة بكثير من العناية والاهتمام، أما الرحلة، فتقع في أربعمئة وسبع وتسعين صفحة من الحجم المتوسط، وهي النسخة المترجمة إلى الإنكليزية، والتي ترجمها المؤرخ الإنكليزي "إرفن بروك Irvine Brock"، وصدرت طبعها الأولى في "كلكتا" سنة ١٨٦٦م، ثم قام بترجمتها المستشرق "أرتشيبالد كونستابل Archibald Constable"، ثم جاءت الطبعة الهندية الأولى الحديثة سنة ١٩٨٣م، في نيودلهي، وهي النسخة التي أصدرها وعلق عليها وقدم لها المستشرق الإنكليزي "فنسينت سميث Vincent Smith".

احتوت رحلة "بيرنير" إلى إمبراطورية المغول المسلمين في الهند على العديد من الرسائل التي بعث بها إلى أصدقائه في باريس، يطلعهم فيها على أحوال وأوضاع الهند في منتصف القرن السابع عشر الميلادي، في ظل حكم دولة المغول، ومن المفيد هنا، أن نشير إلى تلك الرسائل بشكل مقتضب، رسالة إلى "المونسieur تشبيليان Monsieur Chapelain" (١٥٩٤-١٦٧٤م)، وهو شاعر فرنسي شهير، كتب بيرنير له تلك الرسالة وهو في مدينة "شيراز" الإيرانية في (٤ تشرين أول سنة ١٦٦٧م)^(١٥)، ورسالة إلى المونسieur دي ميرفيلاس Monsieur de Mervelles، كتبها له وهو في مدينة دلهي في (١٤ ديسمبر ١٦٦٤م)، تحدث فيها عن زحف الجيش المغولي بقيادة الإمبراطور "أورانجزيب" إلى إقليم "كشمير" للتنزه والترفيه^(١٦)، ورسالة إلى "المونسieur دي ميرفيلاس" كتبها في مدينة "لاهور" في (٢٥ شباط ١٦٦٥م)، تحدث

فيها عن الجيش المغولي والفيلة والخيول والبغال والجمال والصعاب التي اعترضت مسيرة الجيش المغولي^(١٧)، كما أرسل مجموعة أخرى من الرسائل إلى صديقه "ميرفيلاس" منها حول تحركات الإمبراطور "اورانجزيب" نحو كشمير" ومنها ما يصف فيها مدينة "لاهور" عاصمة إقليم البنجاب^(١٨)، ورسالة هي التاسعة، كتبها في كشمير، واشتملت على مادة تفصيلية عن هذا الإقليم الغني بثرواته الاقتصادية^(١٩).

أما الرسالة التي وصف "بيرنير" بها مدينة "دلهي وأكرا"، فقد جاءت رسالة مفصلة وشاملة لكل مناحي الحياة في دلهي وأكرا، ولم يترك معلماً من معالمها إلا وأعطاه وصفاً توضيحياً، وهي من الرسائل التي بعث "بيرنير" بها إلى صديقه "المونسيور دي لاموتي ليفيير De la Mothe le Vayer" (١٥٨٨-١٦٧٢م)، وهو أحد علماء فرنسا المشهورين بغزارة إنتاجهم العلمي، لاسيما في حقل التاريخ والجغرافية وعلم الأعراق البشرية (Ethnology)، كتبها له في مدينة "دلهي" في (٥ تموز ١٦٦٣م)^(٢٠).

تعتبر رحلة "بيرنير" سفرًا تاريخياً فريداً يتصل بشكل مباشر بتاريخ إمبراطورية المغول المسلمين في الهند، لاسيما في عصر الإمبراطور "محي الدين أورانجزيب"، وتزداد الرحلة قيمة علمية وتاريخية حينما نتطلع إلى التفصيلات الكثير حول مدينة دلهي والتي كانت في أيامه من أبرز المدن الإسلامية وأكثرها ثراء ومشاعل فكرية وثقافية، ربما فاقت العديد من المدن الإسلامية الأخرى، كدمشق وبغداد والقاهرة، وقد قدم "بيرنير" صوراً مختلفة لأنماط الحياة المتعددة في دلهي وأكرا، وتحدث عن تطور المؤسسات السياسية والإدارية في دولة المغول وتناول طبيعة الشعب الهندي بفئاته المختلفة.

الرسالة المعنية بالبحث والدراسة تقع في ستين صفحة من الحجم المتوسط، تناولت بشيء من التفصيل كل ما يتصل بحياة مدينة دلهي أيام وجود "بيرنير" فيها في منتصف القرن السابع عشر الميلادي، ويحسن بنا أن نفرز محتويات الرسالة على

شكل موضوعات رئيسية، ولك توضيحاً للمهتمين بدراسة أحوال المدينة الإسلامية، احتوت الرسالة على العناصر التالية:

- المقارنة بين دلهي وبقية المدن الأوروبية الأخرى.
- بناء مدينة دلهي في عصر "شاهجهان".
- وصف قلعة دلهي وما بداخلها من أسواق وشوارع ومحلات تجارية وبيوت ومنازل وأماكن الحرفيين والمبنى العام والخاص وقصر الحريم، ووصف العرش الملكي.
- وصف المسجد الجامع.
- الوجود المسيحي والهولندي في دلهي.
- وصف مدينة "أكرا" وتاج محل.

تلك هي أبرز العناصر التي احتوتها رسالة الرحالة الفرنسي "بيرنير" إلى صديقه في باريس "ليفير"، ولا بد من وقفة مع الرحالة "بيرنير" والأهداف والغايات التي من أجلها قام بتلك الرحلة الشاقة في ربوع الإمبراطورية المغولية في الهند، حيث يقول في مقدمة الرحلة:

"إن الرغبة الحقيقية التي دفعت بي إلى زيارة مصر وفلسطين، هي زيارة الأماكن المقدسة، وهي التي بقيت تدفع بي للتوسع برحلاتي إلى أن رحلت إلى مصر، وشاهدت فيها البحر الأحمر من شماله إلى جنوبه عن كثب، ومكنت فيها قرابة عام كامل، ثم غادرتها إلى ميناء السويس ومنها إلى ميناء جدة، وهناك تمكنت من الحصول على موافقة حاكم البحر الأحمر (العثماني) للسماح لي بدخول مدينة مكة، تلك المدينة المقدسة عند المسلمين، وكان حصولي على تلك الإذن بمثابة فرصة تاريخية ثمينة بالنسبة لواحد مسيحي مثلي، الذي تحظر الشريعة الإسلامية دخولنا إلى تلك الديار المقدسة، اللهم باستثناء الرقيق، ومن مكة قمت بزيارة مدينة "كوندر

Gonder"، عاصمة الحبشة، غير أن الظروف الصعبة حالت بيني وبين إكمال الرحلة إليها، وذلك بسبب تعنت البرتغاليين واضطهادهم للكاثوليك... ثم ركبت البحر بقارب هندي، وأبحرت عبر مضيق باب المندب، وبعد مضي اثنتين وعشرين ليلة وصلت إلى ميناء "سوارت" الواقع في بلاد هندوستان، أرض أباطرة المغول العظماء^(٢١).

* مقارنة بين مدينة "دلهي واكرا" بالمدن الأوروبية المعاصرة:

لا شك ونحن نراجع زيارات الرحالة الأوروبيين إلى المنطقة العربية والإسلامية على اختلاف مناطقها، نلاحظ ظاهرة غريبة، أو ربما تكون طبيعية، حيث يكون في ذهن أولئك الرحالة مواقف سلبية مسبقة عن العالم الإسلامي، سواء مدنه أو معتقداته وعاداته وتقاليده، بل، وفي كثير من الأحيان، يغلب على مواقفهم التعصب الأعلى الذي يصل إلى حد التزمّت إزاء العالم الإسلامي، حتى إن أحدهم، وهو الرحالة "مانريكو Manrique"، وصف المسلمين في رحلته إلى الهند، بأنهم برابرة، في الوقت الذي أشاد بدور إمبراطورية المغول في عمارة وتطور الهند ونهضتها.

وعندما نحلّل رسالة "بيرنير" نلاحظ عليه وهو يعقد مقارنة بين المدينة الإسلامية في الهند وبقية المدن الأوروبية، مثل لندن وأمستردام، إنه يحمل أفكاراً غير متوازنة، بل يغلب عليها التناقض في كثير من المواقع، وفي نفس الوقت يؤكد على أن الصورة التي حملها معه من باريس إلى الهند عن المدينة الإسلامية قد تغيرت مجرد مشاهدته لواقع المدينة الإسلامية في الهند، وهي صورة عدائية بالطبع، فقد نوّه إلى صديقه "فايير" أن مدن الهند، كمدينة دلهي على سبيل المثال، لا تقل تطوراً أو حضارة وعمارة عن مدينة لندن وباريس، وأعرب له عن دهشته الكبيرة عن مظاهر التطور المختلفة التي تعيشها المدينة الإسلامية في الهند، وهنا يعترف "بيرنير" بأن الصور السلبية تجاه المسلمين وتراثهم وحضارتهم ومدنهم التي حملها معه من باريس قد تغيرت وتلاشت واضمحلت، بسبب ازدهار المدينة الإسلامية وتفوقها في كثير من

الأحيان على المدينة الأوروبية، وقد وُتخ "بيرنير" الكثير من الرحالة الأوروبيين الذين زاروا الهند ولم ينقلوا الصور الواقعية المتطورة لتلك المدن، والذين انتقصوا (عن عمد)، مكانة ودور المدينة الإسلامية في الهند وغيرها، في حين، ما نجده في شوارع مدن باريس ولندن وأمستردام، نجده تماماً في معظم شوارع وأحياء مدينة "دلهي" (٢٢).

وحينما يعاود "بيرنير" الحديث عن جماليات المدينة الأوروبية، فإنه يرجع سبب ذلك الجمال إلى الظروف المناخية والجغرافية التي تتميز بها أوروبا عن الهند، وهي الظروف التي تخلق مواصفات مميزة وخاصة للمكان، للتغلب على طقس أوروبا الشديد والطويل البرودة، بينما يختلف الأمر في "دلهي"، ذات الأجواء الدافئة والحارة، والتي لا تطاق، دفعت بالملك والرعية إلى لبس الأحذية الخفيفة (البابوش) طوال العام، ولبس العمام الخفيفة المصنوعة من أجمل أنواع الأقمشة وأجودها، في حين أن الشائع من اللباس عند الهنود، هو لبس القماش الأبيض الخفيف (٢٣).

لقد اعتاد سكان مدينة دلهي وغيرها من المدن الهندية الأخرى النوم في الطرقات، بسبب الارتفاع الكبير في درجات الحرارة، بينما التجار ينامون في حدائق منازلهم، أو على أسطح البيوت، وهو ما جعل "بيرنير" يلاحظ انتشار الأمن والاستقرار، داخل مدينة "دلهي" وأن الناس لا يخشون على أنفسهم من النوم في الطرقات، ويؤكد "بيرنير" على تلك الظاهرة لصديقه "فايير":

"هب أن شوارع 'جاك Jaques' أو شوارع 'دينيز Denis'، في باريس، وبيوتها المغلقة، فهل تصلح تلك الشوارع للسكن 'Habitable'، وهل من الممكن النوم فيها أثناء الليل، فذلك سيحدث مشاكل كبيرة لا حصر لها، بينما الأمر مختلف تماماً في مدينة 'دلهي'، فباستطاعة الإنسان العادي أن ينام وهو مطمئن البال دون خوف ولا وجل، فما عليك 'لا أن تغتسل بالماء، ثم تستلقي على الأرض خالداً إلى النوم' (٢٤).

وحينما يتحدث الرحالة "بيرنير" عن حدائق "شاليمار Shalimar"، العائدة إلى البلاط المغولي، حيث يتواجد بها قصر ملكياً خاصاً، يشيد بجمالها وروعها وحسن تصميمها

الهندسي البديع، ومع ذلك كله، فإنه جعلها أقل درجة من حدائق باريس وأوروبية ، وأنها لا تقارن بها مطلقاً، لاسيما حديقة "فونتبأولو Fountainbleau"، وحديقة "سانت جيرمان Saint Germaqn"، وحديقة "فرساي Veresailles"، وأنه لا يوجد في مدينة "دلهي" ما يوازي حديقة "سانت كلاود Saint Cloud"، ولم يكتف "بيرنير" بهذا الموقف، بل بالغ حينما وصف تلك الحديقة المغولية بأنها لا ترقى في جمالها إلى مستوى المنازل الخاصة بتجار فرنسة^(٢٥).

* وصف مدينة "دلهي" (شاهجهان آباد):

يبدو أن الرحالة الفرنسي "بيرنير"، ورغم مكوثه في الهند سنوات طويلة، إلا أنه بقي جاهلاً لواقع مدينة دلهي وتفصيلاتها الداخلية، وكذلك نجده غير مطلع على تاريخ المدينة القديم، بل ولم يحاول معرفة تاريخ "دلهي" العريق من الذين تعرف إليهم من وزراء البلاط المغولي وعلماء الهند^(٢٦)، الأمر الذي أثر كثيراً على المعلومات التي أوردها في رحلته إلى إمبراطورية المغول في الهند، في منتصف القرن السابع عشر الميلادي، والحقيقة أن مدينة "شاهجهان آباد" هي آخر موقع لمدينة دلهي، وهو أحدثها في فترة الدراسة، سميت بذلك الاسم تيمناً باسم الإمبراطور "تور الدين شاهجهان"، الذي أمر ببنائها، في حين مرت مدينة "دلهي" بالعديد من المراحل والتطورات عبر تاريخها الطويل، لتصبح مع مرور الوقت مجموعة من المدن في مدينة واحدة، وحملت مسميات مختلفة في فترات الحكم الإسلامي، فقد سماها فاتحها الأول "قطب الدين أيبك ٥٨٨هـ / ١١٩٢م" بقبة الإسلام" وسماها السلطان "غياث الدين بلبن ٦٧٩هـ / ١٢٨٠م، بـ غياث بور"، وسماها "جلال الدين فيروز شاه الأفغاني ٦٨٩هـ / ١٢٩٠م، بـ معز آباد"، وسميت بـ "تغلق آباد" في عهد السلطان "غياث الدين تغلق ٧٥٥هـ / ١٣٥٤م"^(٢٧).

كما لا نغتر ولو على إشارات طفيفة على معرفة "بيرنير" بتاريخ مدينة "دلهي" في العصور الإسلامية المختلفة، بل اكتفى بوصف مدينة "دلهي" الجديدة والتي عرفت في

وقته باسم "شاهجهان آباد"، وهي المدينة التي شيدها الإمبراطور "شاهجهان" ما بين سنة ١٠٤٨هـ / ١٦٣٨م - ١٠٦٩هـ / ١٦٥٨م^(٢٨)، وقد ورد في الرحلة:

"بني موقع مدينة "شاهجهان آباد" على مقربة من موقع المدينة القديمة، وفيها أمر الإمبراطور المغولي ببناء قصره وبلاطه الملكي، بعدها، لم يعد يذكر اسم "دهلي" إلا نادراً، حيث طغى عليها الاسم الجديد "شاهجهان آباد" فمدينة "دهلي" هي مدينة حديثة بكل ما تحمله الكلمة من معنى، تقع على أرض منبسطة، على ضفة نهر "جمنا"، وهو النهر الشبيه بنهر "اللورين" في فرنسا، بنيت المدينة على ضفة واحد للنهر، وأخذت شكلاً هلالياً ويربطها بالمدينة القديمة جسر واحد، وأحيطت المدينة بأسوار مرتفعة محصنة غاية التحصين، حيث بنيت من القرميد والآجر... ولا زالت أسوار المدينة غير مكتملة البناء، ويحيط بها الساحات العامة والحدائق الجميلة^(٢٩)."

* وصف قلعة دهلي:

تعد قلعة "دهلي" هي المدينة الحقيقية لمدينة "شاهجهان آباد" وتشكل غالبية مساحتها، ويتواجد فيها معظم أبنية البلاط الملكي والقصور والأسواق وغيرها، وهي القلعة التي لفتت انتباه واهتمام كل الرحالة الأجانب الذين زاروا دهلي في القرن السابع عشر الميلادي، واعتبرها كل من رآها مأثرة خالدة من مآثر المغول المسلمين في الهند، واعتبرها "بيرنير" علامة مميزة لمدينة دهلي، واعتبرها من المنشآت العظيمة الخالدة في التاريخ الإنساني عبر مراحلها وعصوره المختلفة^(٣٠)، وقد بنيت تلك القلعة بأمر من الإمبراطور "نور الدين شاهجهان"، واستغرق بناؤها حوالي عشرين سنة، حيث بدأ العمل بها في عام ١٠٤٨هـ / ١٦٣٨م، واستمر لغاية عام ١٠٦٩هـ / ١٦٥٨م.

ويطلعنا "بيرنير" في رحلته إلى الهند، عن المميزات التي تمتعت بها قلعة "دهلي" وأهم الأسوار والتحصينات التي انتشرت حول المدينة من جهاتها المختلفة:

"أما سور القلعة الذي يطوق القلعة بالكامل، يحيط به أبراج محصنة تشبه إلى حد كبير تلك الأبراج التي بنيت داخل القلعة، وقد صنعت من الآجر الأحمر، وهي كبيرة الشبه بالرخام الأحمر، تعطي مناظر جميلة وخلابة، بينما حميت القلعة بخنادق دفاعية عميقة، ملئت بالماء، ويوجد بمحاذاة الخندق حديقة جميلة مليئة بالورود والأزهار، تعطي منظراً خلاباً على طول سور القلعة، وبعد الحديقة مباشرة يأتي ميدان ملكي خاص، يقع أمام بوابة القلعة، بينما يقع خلف القلعة شارعان من أهم شوارع المدينة، ونشاهد خيم الأمراء والنبلاء نصبت في الميدان الملكي، حيث انعقد في الميدان تدريبات خاصة بالخيول الملكية، وذلك حفاظاً على جودتها ولياقتها وقدرتها على القتال، وتفحص تلك الخيول على يد قائد الفرسان، الذي يقوم بدوره بفرز الأنواع الجيدة من الخيول التركية والتترية، ويسم تلك الخيول الجديدة بوسم ملكي Brand لتمييزها عن بقية الخيول الأخرى^(٣١).

والواقع أن "بيرنير" لم يسم لنا أسماء تلك الحدائق المحيطة بالقلعة، علماً بأن المغول المسلمين ممن اهتم ببناء الحدائق ومنحها أسماء خاصة بها، وعادة ما كانت تبني تحت رعاية الملك أو زوجاته أو محضياته أو الأمراء والنبلاء وغيرهم، فهناك حديقة "قديسة" الواقعة إلى الشمال من قلعة "دلهي"، والواقعة قبالة بوابة كشمير، وبنتها "قديسة بيكم" والددة "شاهجهان"^(٣٢)، وحديقة "شاليمار" التي تبعد عن القلعة ميلاً واحداً فقط، بناها الملك "شاهجهان" سنة ١٦٥٣م^(٣٣)، وهناك حديقة "روشانارا بيكم" ابنة الإمبراطور "شاهجهان" بننها سنة ١٦٥٠م^(٣٤).

أما محتويات القلعة الداخلية فهي كثيرة ومتنوعة، حيث تشمل كافة المرافق والمنشآت المعمارية الكبيرة، كقصر الحريم والمباني الملكية وديوان الخاص وديوان العام، والحمام الملكي، والمساجد الملكية، والأسواق ومباني الحرفيين والتجار وغيرهم، وهي الأماكن التي نالت إعجاب "بيرنير" وغيره من الرحالة والأوروبيين، بل نجد "بيرنير" يشابه بين المباني الملكية المغولية داخل قلعة "دلهي" بتلك الموجودة في فرنسا كقصر

"اللوهر والأوسكريال"، وإن هي لا تتشابه معها بالزخارف والنقوش، إلا أنها غاية في الجمال والروعة، وتتناسب مع الظروف المناخية الحارة السائدة في الهند^(٣٥).

ونلاحظ المؤرخ الإنكليزي "فيركوسن Fergusson"، الباحث المتخصص في فنون العمارة عند المغول المسلمين في الهند، قد اعتبر القصر الملكي الموجود داخل القلعة من أعظم وأفخم القصور الملكية في الشرق على الإطلاق، بل وعدة من القصور النادرة البناء في العالم، واعتبر قصر الحريم وحده أكبر ثلاث مرات من قصر الأسكوريال في فرنسا، وإن قصر الملك أكبر من أي قصر في عموم أوروبا قاطبة^(٣٦)، في حين قرر المؤرخ "فانشاو Fanshawe"، أن طول القصر يبلغ ٣٢٠٠ قدم، من شماله إلى جنوبه، بينما يحيط به قصور النبلاء المبنية من القرميد الأحمر^(٣٧).

ونقف عند ظاهرة غريبة وهي أن "بيرنير" رغم إعجابه الشديد بمدينة دلهي وقلعتها، إلا أنه لم يشير لا من قريب ولا من بعيد إلى بوابات القلعة، علماً بأنها من معالم القلعة الرئيسية، فهناك بوابة "كشمير"، وبوابة "دلهي"، وبوابة "لاهور"^(٣٨)، في الوقت الذي أشار فيه معلم معماري بارز وضع على مدخل القلعة، وهو وجود تمثالين لفيلين منحوتة من الصخور، وضعا بشكل هندسي بارع ومحكم، ويقع من جهة اليسار أحدها يمتطيه أحد زعماء الهندوس الراجبوت، وهو الراجا "جايمال Raja Jaimal"، أحد زعماء "تشيتور Chitor"، والتمثال الثاني يمتطيه شقيقه بولتا Polta، وهما من زعماء وقادة الهندوس العظام، الذين تميزوا بالشجاعة والدهاء، واشتهر اسماهما في عصر الملك "جلال الدين أكبر"، في معارضة ومحاربة الدولة المغولية، وسعياً بكل الوسائل للقضاء عليها والخلاص منها، إلا أن "أكبر" تخلص منهما وقتلها سنة ١٥٦٨م^(٣٩).

ويطلعنا "بيرنير" على مظاهر العمل والنشاط الذي كانت تعيشه مدينة دلهي داخل القلعة، إذ إن الشارع الفضلي الطويل الذي ذكره "بيرنير" كان مخصصاً للمشاة فقط،

بينما الأبنية المحيطة به من جوانبه المختلفة هي التي اختيرت لأهل الحرف والصناعات كـ "الطرازه Embroiders"، والصاغة والرسامين والطلّائين والنساجين، وصناع الموسلين المتخصصة بصناعة العمائم، والنجارين والخراطين والخيّاطين والحدّائين، كلهم يمارسون أنشطتهم لشكل يومي، في مباني مخصصة لهذا الغرض تسمى بـ "كارخانه"، ولاحظ "بيرنير" أن معظم هؤلاء الحرفيين تعلموا حرفهم عن طريق آبائهم وورثوها لأبنائهم عبر الزمن^(٤٠).

أما الشارع الذي ينتصف القلعة فتعبر به قناة مائية طويلة ومتحركة، تسير حتى تصل إلى قصر الحريم، ثم تغور المياه في خندق القلعة، حيث جلبت المياه إليها من نهر "جمنا" بواسطة قناة مفتوحة يتراوح طولها حوالي ستة فراسخ، وقد نحتت بالصخور على يد عمال مهرة^(٤١). ويؤكد المؤرخ "الندوي" أن قناة دلهي تعتبر عملاً هندسياً ومعماريّاً بديعاً وفريداً، يشهد على التطور والازدهار الذي وصلت إليه إمبراطورية المغول المسلمين في الهند، وأعاد تصميم تلك القناة إلى الأمير "علي مردان خان القندهاري" وهو من المشهورين في نبوغهم وعلمهم في مجالات السياسة والإدارة^(٤٢).

ينتقل "بيرنير" للحديث عن أكبر وأعظم مبنيين في داخل القلعة، ألا وهما: الديوان الملكي الخاص والديوان العام، على أن مشاهدات "بيرنير" لهذين المبنيين كانت سطحية لم تدخل بالتفاصيل، على أهميتها، فالديوان الخاص والديوان العام يشكلان معالم قلعة دلهي الرئيسية، ومع ذلك، اكتفى "بيرنير" بوصفهما وصفاً عابراً:

"إن المبنى الخاص والمبنى العام صروح ضخمة وعظيمة وهي في غاية الروعة والجمال، وهي باحات فسيحة بني عليها القناطر الكثيرة، بينما يوجد في كل قنطرة جدار خاص بها، ويعطوا هذا المبنى ديوان واسع كبير، يتجه صوب البلاط الملكي، ويسمى بـ "كرخانه" وهي قاعة الطبول والموسيقى Kettle-drum room المخصصة للديوان"^(٤٣).

يقع العرش الملكي داخل فناء الديوان العام، وقد عرف العرش المغولي بالعرش "الطاووسي"، ذلك لفخامته وعظمته وأبهته^(٤٤)، فقد أعجب "بيرنير" بالعرش "الطاووسي" أيما إعجاب، وجعله يندesh أمام سحر وروعة تصميم وبناء العرش الملكي المغولي، الأمر الذي دفعه إلى التأكيد لصديقه في باريس، بأنه لم ير مثله زخرفة ونقوشاً وتصميماً في حياته، والحقيقة أن العرش وفخامته يدل على عظمة وهيبة وأبهة أباطرة المغول المسلمين في الهند، أما وصف العرش "الطاووسي" يقول "بيرنير":

"لقد ظهر الإمبراطور المغولي جالساً على العرش الواقع في نهاية ردهة قصر الديوان الملكي العام، في ملابس مهيبة فاخرة ورائعة تخب الألباب، وهي ملابس بيضاء، مرهفة ناعمة مصقولة ومطرزة بالحرير والمورد ، وثوبه مزركشاً ومزخرفاً بالخيوط الذهبية، بينما صنعت عمامته من القماش المذهب، يحيط بها ريش الطاووس الخلافة، والمجوهرات الجميلة النادرة، فريدة في نوعها، وهي ظاهرة للعيان، تعكس بريقاً ولمعاناً ونوراً كأشعة الشمس، وبدت قلاوته اللؤلؤية الضخمة تتدلى من عنقه لتصل إلى منتصف البطن أما العرش الملكي الذي يجلس عليه الإمبراطور يقوم على ست أرجل كبيرة، وهي التي تثبته في الأرض، قيل إنه مصنوع من الذهب الخالص، وتنتشر حوله المجوهرات والأحجار الكريمة والياقوت والماس، مما جعلني عاجز عن إعطاء وصف تفصيلي، لاسيما تقدير قيمته المالية، وذلك بسبب الظروف الأمنية الصعبة التي حالت بيني وبين الاقتراب من العرش الملكي، ومع ذلك أستطيع التأكيد على أن ما شاهده يعكس واقع الأبهة والترف الموغلة بالبذخ، فالعرش الذي يجلس عليه الملك، ومن خلال معرفتي بمثل تلك المجوهرات، فإبني أقدر قيمة العرش الطاووسي بحوالي أربعين مليون روبية (ما يعادل ٤,٥٠٠,٠٠٠ جنيه استرليني)^(٤٥)، ونلاحظ الأمراء يجلسون عند أسفل العرش، على منصات صغيرة مسيجة بالفضة وهي متقنة غاية الإتقان، يغطيها مظلة

رحبة تأتي فوق السرير الملكي، مصنوعة من القماش المقصب والمطرز، ويتدلى من قماش المظلة شرابيبي من الذهب، بينما أعمدة المبنى مغطاة بالقماش المقصب وأرضيته مذهبة، ومظلة كبيرة مصنوعة من قماش الساتان الحريري المزركش بالذهب والزهور والورود، وتغطي مساحات واسعة من الجناح الملكي، مثبتة بحبال حمراء مصنوعة من الحرير، بينما أرضية العرش الملكي مغطاة بالسجاد الفاخر المصنوع من الحرير الثمين،... ثم في اليوم الثالث من الاحتفال، يقوم الملك ويلييه الأمراء واعيان البلاط بتوزيع أنفسهم بميزان ضخ، يوضع الملك في كفة، وتملاً الكفة الأخرى ما يساوي وزنه ذهباً^(٤٥).

لقد كان للتصميم الفني البديع للعرش المغولي، وقدرة مصممه الإبداعية ومهارته العالية في الابتكار، سبباً في حيرة الرحالة "بيرنير"، حيث لم يستطع أن يتمالك نفسه أمام ذلك الواقع المتطور لدولة المغول المسلمين في الهند، ليخرج في تفسيره للأمور عن واقعها وحقيقتها، مقررأ أن مصمم العرش المغولي هو من أصول فرنسية^(٤٦)، ليوهم القارئ بأن المسلمين ليسوا بمستوى تصميم وبناء مثل تلك المنجزات الفاخرة في حضارتهم، وهو تقليل -بدون شك- لدور المسلمين وحضارتهم الريادية التي ساهمت في بناء الوعي الفكري العالمي، ويكون بذلك قد بالغ بإنكار الحقيقة، وهو أمر غير مبرر إطلاقاً، لاسيما وأن "بيرنير" ليس إنساناً أمياً، بل كان طبيباً محترفاً، ومع ذلك وقع في مثل هذا المنزلق، الذي أعطى الحق لغير أهله، حتى المستشرق الإنكليزي "سميث" أنكر على "بيرنير" وبشكل صريح هذا الموقف، واعتبره مجانباً للواقع، وحتى "بيرنير" وجدناه عاجزاً عن ذكر اسم ذلك الفرنسي الذي ادعى أنه صمم العرش الملكي المغولي، بينما الأمر مختلف عند الرحالة الفرنسي "تافرنير Tavernier"، الذي مع تحيزه لكل ما هو فرنسي وأوروبي، إلا أنه لم يحاول إنكار الحقائق التاريخية، بل واعترف ببراعة فن النقش والعمارة والتصميم عند المعماريين المسلمين في الهند، وبينما لم ينجح "بيرنير" من وصف العرش المغولي وصفاً دقيقاً

وتفصيلياً، فإن "تافرنير" أعطانا تفصيلات هامة حول الموضوع، ومن ذلك ما أورده^{٤٧} حول المجوهرة الملكية التي يتقلدها الإمبراطور المغولي "أورانجزيب"، وقد أورد ذلك في (٢ نوفمبر سنة ١٦٥٥م)، حيث يقول:

"إن المجوهرة التي يلبسها الملك حول عنقه، وتتدلى إلى منتصف بطنه، تتكون من ثماني قطع، بينما يبلغ وزنها ٥,١٥٨ قيراطاً إيطالياً، وقد اشتراها ملوك المغول في ميناء "جوا" بثمن مقداره (١٨١,٠٠٠ روبية هندية) ما يعادل (٤١٢,٢٠) جنيه استرليني^(٤٨).

أما الديوان الملكي الخاص (Royal Audince) والذي يعتبر من أبرز معالم مدينة دلهي المعمارية، فلم يأخذ من "بيرنير" الاهتمام الذي يستحقه، بل ما نلاحظه عليه، أنه راح يخلط بين الديوان الخاص والعام دون التمييز بينهما، وهذا ما نلاحظه أيضاً عند معظم الرحالة الأوروبيين، ويبدو أن السبب يرجع إلى الظروف الأمنية التي حالت بينهم وبين الدخول إلى الديوان الخاص والعام، لأن فيهما منامات الإمبراطور وأسرته الخاصة، على أن أسرار تلك الأمكنة الملكية انكشفت للمؤرخ "فانشاو Fanshawe"، الذي ألف كتاب "دلهي شاهجهان" (ماضياً وحاضراً)، والذي أصدره سنة ١٩٠٢ في مدينة دلهي، معتبراً الديوان الملكي الخاص من أهم الدواوين الملكية على الإطلاق، والذي تبلغ مساحته (١٩٠ في ١٦٠) قدماً، أما مساحة الغرفة الملكية الخاصة فهي (٩٧ قدماً في ٩٠ قدماً) حيث يقابلها مباشرة رصيف من الرخام الأبيض، على غرار مبنى المحل الخاص، الذي بنى للملك "شاهجهان" في قلعة "أكرا"^(٤٩)، كما وجد في الجناح الخاص الذي يعتبر مرقد الملك، مناماته وأسرته والتي أطلق عليها "تسيبيح خانه"، في حين يمر بداخل الحجرة الملكية الخاصة قناة رخامية جميلة تتوسط الحجرة، بينما يقع على القناطر العليا للحجرة حواجز رخامية من قضبان متصالبة بحيث يتداخل بعضها ببعض الآخر، وهي من المرمر والرخام، ويقع في الناحية الشمالية للحجرة ما يعرف بـ "ميزان العدل"، بينما في الجهة الجنوبية للحجرة فئمة شرفة

رائعة الجمال يوجد فيها شموع جميلة، أما من جهة النهر فهناك حجرة بارزة إلى الخارج تسمى بـ "مئمن برج" أي البرج المئمن (Octagonal Tower)، ويقع في أسفل منها بوابة تسمى بـ "بوابة الخضر" (Khizri Gate)^(٥٠).

إضافة إلى الديوان الملكي الخاص، فإن "بيرنير" كشف لنا عن موقع ملكي اعتبره من الأماكن الهامة لدى أباطرة المغول المسلمين في الهند، ألا وهو "الغسل خانه" "Royal Bath"، والذي يقع ضمن حدود الديوان الملكي الخاص، وهو المكان الذي لا يسمح بالدخول إليه إلا للملك وحاشية البلاط الملكي، إذ كان مخصصاً للملك والأمراء والنبلاء والأعيان وكبار رجالات الدولة، ويبدو أن القوانين المغولية سمحت للسفراء والبعثات السياسية الأجنبية الخاصة في الدخول إليه، واعتبر "بيرنير" الغسل خانه تحفة فنية وجمالية رائعة، لكثرة تداخل النقوش والمزركشات فيها، بحيث تغطي أرضية الحمام وسقفه وجميع جدرانه، على أن معظمها مطلية بالذهب، بينما ينتصف الحمام المكان، ويرتفع عن سطح الأرض حوالي أربعة أقدام إلى خمسة، وفي هذا المكان يجلس الملك على كرسي خاص ويحيط به الأمراء والأعيان من كل جانب، وفي هذه الأثناء يتخذ الملك سلسلة من القرارات الهامة في الدولة، مثل التعيينات والعزل، كما كان يغدق الهبات والهدايا على رجالات الدولة، وأنه كان يستقبل التقارير الهامة المتعلقة بشؤون الدولة، وقد أصبح الاجتماع الملكي بكبار رجالات الدولة داخل الغسل خانه مرتين في الأسبوع^(٥١).

ينتقل بنا الرحالة "بيرنير" إلى معلم بارز من معالم مدينة "دلهي"، ألا وهو قصر الحريم (Seraglio)، والذي اشتهر في عصر دولة المغول باسم "المحل"، وقبل أن نستعرض بالحديث عن قصر "الحريم" الخاص بأباطرة المغول في الهند، نشير إلى أن ظاهرة انتشار قصور الحريم عصر إمبراطورية المغول في الهند كانت ظاهرة موجودة وربما تميزت على غيرها من الدول الإسلامية في هذا المضمار، بحيث تنتشر في معظم المدن الهندية الكبرى، ويدل كثرة انتشار قصور الحريم على ولع أباطرة

المغول بالنساء والتفنن في بناء قصور خاصة بهن، وهي في أغلبها قصور فارهة، ذات تصاميم هندسية بديعة، تتلاءم مع وجود عشيقات ومحظيات الأباطرة والأمراء والنبلاء، أطلق على "قصر الحريم" أسماء مختلفة، منها اسم محل "وشابستان إقبال" و"شابستان خاص"^(٥٢)، وانتشرت قصور "الحريم" في عصر الإمبراطور "جلال الدين أكبر" انتشاراً واسعاً، حيث تميزت جميعها بروعة البناء وفخامته، ونلاحظ أن تلك القصور قد احتوت في عصر "أكبر" على أكثر من خمسة آلاف امرأة، بالإضافة إلى قصور الحريم، ثمة قصور خاصة بالملكات والأميرات المغوليات، وقد حملت معظم تلك القصور أسماء الملكات أو الأميرات المغوليات، وعلى سبيل المثال، هناك في مدينة "أكرا" أربعة قصور، هي: قصر "رقية سلطان بيكم"، وقصر "شهزادي خانوم"، وقصر "كلزار بيكم"، وقصر "مريم مكاني"^(٥٣)، وهناك ثلاثة قصور للحريم يأوي إليها خليلات ملوك المغول وعشيقاتهم، وقد عرفت هذه الأماكن بـ "محل الأحد"، و"محل الثلاثاء"، و"محل السبت"^(٥٤)، بينما لاحظ الرحالة "دي لايت De Laet"، أن من بين تلك القصور يوجد قصر خاص بالنساء اللواتي يجلبن من خارج الهند، وقد سمي ذلك القصر بـ "بنغالي محل"^(٥٥)، وأشار المؤرخ "رالف فيتش Fitch" إلى وجود ثلاثة قصور "محال" للحريم قد شيدت في عصر الإمبراطور "جهانكير"، في قلعة "لاهور" وحدها، حيث كان "المحل" يحتوى على أبنية وعناصر مزدوجة، ويحتوي كل عنصر على ثمانين حجر تضم العديد من النساء، و"المحل الثاني، عبارة عن صرح مربع ضخم خصص لحوالي مائتي امرأة، أما "المحل" الثالث، فهو أفخمها وأعظمها عمارة وجمالاً، احتوى على ست عشرة حجرة كبيرة، تتوسطها ساحة رخامية فائقة الحسن والجمال، ويتوسط الساحة الرخامية بركة ماء جميلة، زينت بالمرايا والصور الفنية الرائعة، المليئة بالنقوش والزخرفة، وأكد "فيتش" على أن أبواب القصر لا تفتح إلا من الخارج فقط ولا يمكن فتحها من الداخل"^(٥٦)، كما تشير المؤرخة الهندية "ريخا ميسرا Rekha Misra" إلى القصر الذي بناه الإمبراطور المغولي "شاهجهان" لزوجته "بيكم

صاحب"، حيث شيد من الرخام الأبيض الساحر، كما صمم للقصر قنوات مائية ونوافير وحدائق خاصة، أما الأميرة "جهانارا بيكم" ابنة "شاهجهان" كانت تمتلك جناحاً خاصاً بها، تميزت حجره عن بقية الحجر، حيث ملئت بالزخارف والمطرزات والصور الجميلة^(٥٧).

يتحفظنا الرحالة الفرنسي "بيرنير" حينما يتحدث عن قصر الحريم الموجود داخل قلعة "دلهي"، وقد انطوت رسالته إلى صديقه في باريس على الكثير من جوانب الطرافة والفكاهة، حيث أخبر صديقه أنه من المستحيل وصف قصر "الحريم" بالصورة الواضحة، بسبب صرامة القوانين والتعليمات المتعلقة بشؤون قصر "الحريم"، حتى على أولئك المتنفذون داخل الدولة، الأمر الذي أضعف من موقف "بيرنير" عن تقديم معلومات دقيقة، وهو الموقف الذي دفع "بيرنير" إلى تحصيل المعلومات من حراس القصر والخصيان الذين يعملون بداخله، ومع ذلك ينقل لنا "بيرنير" جانباً هاماً من جوانب حياة أباطرة المغول الاجتماعية الخاصة، الذين من جانبهم ضربوا على تلك المحال والقصور عزلة كبيرة، يقول "بيرنير":

"كيف يستطيع سائح مثلي أن يصف قصر الحريم الملكي الخاص وصفاً دقيقاً وواضحاً، لاسيما من داخله، وكنت في كثير من الأوقات أذهب لرؤية القصر في الأوقات التي يكون فيها الملك خارج مدينة "دلهي"، وذات يوم حصل لي أمراً غريباً، إذ سمح لي بالدخول إلى بوابة القصر من الداخل وذلك لتقديم العلاج لإحدى نساء القصر المريضات، التي منعت من الخروج للعلاج خارج القصر، ووفقاً للطقوس والتعليمات المتبعة، فقد أجرى الحرس جملة من الإجراءات والتعليمات، حيث قاموا بتغطية رأسي بقطعة قماش من الشال الكشميري الطويل، أخفى جسمي بكامله، وسافني أحد الخصيان بيده، وأنا أسير كرجل أعمى لا يرى شيئاً، وأخبرني الخصيان بأن القصر مليء بالأجنحة الجميلة والتي تنفصل عن بعضها البعض، كما تختلف بأحجامها من جناح إلى آخر، ولكل عنبر من عنابر الحريم خزان ماء خاص به،

بينما تغطي الحدائق الجميلة ردهات القصر، وصممت الممرات والمماشي بين الأشجار الجميلة، يحيط بها جداول صغيرة من المياه، ونوافير ومغارات صغيرة جميلة وشرفات تستخدم للنوم في فترة المساء^(٥٨).

سجل الرحالة "بيرنير" مشاهداته للسوق والمعرض التجاري الذي كانت تعقده نساء قصر الحريم داخل قلعة "دلهي"، ليعتبرها بمثابة الأعياد بالنسبة للمغول، حيث أقامت نساء القصر، وأغلبهن من الجميلات الحسان، معرضاً لبيع الأقمشة والبضائع المختلفة، والعمائم المصنوعة من الأقمشة الفاخرة المطرزة بالذهب، كما ويتم عرض البسة نسائية فاخرة مصنوعة من الموسيلين، بينما يقوم على بيع تلك البضائع فئات حسان، في حين يقوم الملك بجولاته المعتادة إلى السوق للتسوق ومشاهدة المعارض، حتى أن الملك كان ملفتاً للانتباه حينما راح يساوم على الأسعار^(٥٩).

ومما هو ملفت للانتباه في رحلة "بيرنير" أنه قرر بأن الإمبراطور المغولي "شاهجهان" من أباطرة المغول في الهند الذين أولعوا بالنساء ولعاً كبيراً، وأنه رجل جنس، وذلك من خلال اهتماماته في إقامة المهرجانات داخل قصر الحريم، وكثيراً ما كان يتجاوز القيود المتعارف عليها عند المسلمين، إذ كان يدعو الراقصات والمطربات والمغنيات إلى إحياء مثل تلك المهرجانات، علماً بأن الراقصات لم يكن من البغايا، بل كن من طبقات اجتماعية معتبرة في المجتمع، اللواتي يكثر مشاركتهن في حفلات الملوك والأمراء والقادة الكبار في الدولة، بينما اتخذ الإمبراطور "أورانجزيب" موقفاً صارماً إزاء تلك الاحتفالات وأصدر أوامره بتحريمها ومنعها بتاتاً، فمنع إقامة المهرجانات داخل قصر الحريم^(٦٠).

* وصف المسجد الجامع في دلهي:

يعتبر المسجد من خصائص المدينة الإسلامية والتي ميزها عن بقية المدن الأخرى، بالإضافة إلى أنه من الرموز السيادية الدالة على سيادة الدولة الإسلامية وهيمنتها على تلك المدن، فإن مدينة دلهي منذ افتتاحها "قطب الدين أيبك" وحتى سقوط إمبراطورية

المغول المسلمين سنة ١٨٥٧م، من المدن الإسلامية المملوءة بالمساجد والجوامع الكثيرة، ومع كثرة تلك المساجد إلا أن "بيرنير" لم يشر إليها، واكتفى بوصف المسجد الجامع الكبير في المدينة، وربما يكون بسبب تميز هذا المسجد على بقية المساجد الأخرى، ولا يفوتنا هنا التنويه إلى بعض أشهر المساجد التي بنيت في دلهي، كمسجد "قبة الإسلام" وهو أول مسجد يبنى في مدينة دلهي على يد فاتحها الكبير "قطب الدين أيبك" وذلك سنة (٥٨٧هـ/١١٩١م)^(١١)، ومسجد "موتي"، وهو المسجد اللؤلؤي المتميز بهندسة التصميم ودقة النقوش وجمالها، وقد بني في عهد الإمبراطور "محي الدين أورانجزيب" سنة (١٠٧٠هـ/١٦٥٩م)^(١٢)، ومسجد "فاتحبور سكري" المشهور بـ "زينة المساجد" الذي بني سنة (١٠٦٠هـ/١٦٥٠م)، بأمر الملكة: نواب فاتحبور بيكم" زوجة الإمبراطور "شاهجهان"^(١٣).

أما المسجد الجامع الكبير الذي خصه "بيرنير" بالوصف، فيقع خارج مبنى قلعة "دلهي"، ويقع تحديداً على مقربة من القلعة من ناحية الشمال الغربي، ويعتبر معلماً معمارياً شاهداً على تطور وازدهار إمبراطورية المغول المسلمين في الهند، ودالاً أيضاً على تميز فن العمارة والهندسة عند المسلمين الهنود، بنى المسجد بأمر من ابنة الإمبراطور "شاهجهان" الكبرى، "جهانارا بيكم"، وقد تم الانتهاء من تشييد المسجد سنة ١٦٤٨م، بعد خمس سنوات متواصلة من العمل والجهد^(١٤)، وعندما نقرأ رحلة "بيرنير" إلى الهند نجده معجباً بها النوع من الطرز المعمارية لدى المسلمين، الأمر الذي جعله يفصل في صف المسجد، يقول:

"يقع المسجد الجامع على صخرة كبيرة وسط مدينة "دلهي"، يحيط به أربعة شوارع كبيرة، بينما للمسجد ثلاث بوابات رئيسية بمثابة المداخل للمصلين، وهناك ثلاثين درجة على كل مدخل من مداخل المسجد، بنيت من الحجارة الكبيرة وصممت المداخل من الرخام الجميل، أما أبواب المسجد فصممت من الخشب المرصع بالنحاس المملوء بالزخارف والنقوش الإسلامية الجميلة، ويقع فوق تلك الأبواب أبراج من

الرخام الأبيض، ويقع خلف المسجد ثلاث قباب كبيرة صنعت من الرخام الأبيض الناصع، أما القبة الوسطى فهي أكبرها وأكثرها روعة وجمالاً، أما بناء المسجد فكان من الحجارة الحمراء والرخام الأحمر^(٦٥)، وقد اعتاد الإمبراطور الذهاب إلى المسجد كل يوم جمعة، بقصد الصلاة مع جماعة المسلمين في هذا اليوم المقدس عندهم، في حين كان الشارع الموصل من القصر إلى المسجد يرش بالماء للتخلص من الأوساخ والغبار وتخفيف حرارة الطريق على الموكب الملكي المغولي، بينما ينتشر على جوانب الطريق جنود مسلحون بدءاً من بوابة القلعة وصولاً إلى المسجد، وهناك ستة خيول على ظهرها فرسان من خاصة القصر مهمتهم التحرك أمام الموكب لفتح وتيسير الطريق أمام الإمبراطور فيما الإمبراطور يمتطي فيلاً ضخماً يسير به من القلعة إلى المسجد، حيث الهوداج الجميلة على ظهر الفيل، في حين تظله مظلة مدعمة بدعائم ذهبية، طعنت بـ "الأزور"، يحملها ثلاثة من الحرس، ويرافق الإمبراطور مجموعة من الأمراء والنبلاء والأعيان، بعضهم يركب الخيول وبعضهم يركب العربات التي تجرها الخيول، ويظهر أثناء الطريق حملة الصولجان^(٦٦).

وقد كشف لنا الرحالة الفرنسي "تافرنير" عن بعض الترتيبات الملكية التي ترافق الإمبراطور أثناء مسيرته من القلعة إلى المسجد لأداء شعائر صلاة الجمعة: "يرافق الإمبراطور ثمانية فيلة، منها أربعة للحراسة، وأربعة منها يعطوها الهوداج الجميلة، وقد خصص أحدها للإمبراطور، ويرافق الموكب ما بين ٥٠٠-٦٠٠ من الرماحين، و٣٠٠-٤٠٠ يحملون الفتائل البارودية، بينما إذا ركب الملك فيلاً، كان على النبلاء السير على أقدامهم طيلة الطريق، وإذا ركب فيلاً فيركبون الخيول^(٦٧).

وأشار كذلك إلى خطبة الجمعة التي قرأت على لسان أحد الخطباء في حضرة إمبراطور المغول، "اللهم أعز الإسلام والمسلمين، وأعز شيوخ الإسلام بقوتك العظيمة، وأعز عبدك السلطان، ابن السلطان، ابن الخاقان، حاكم القارتين، وسيد البحرين، الفاتح الغازي، أدام الله عزه وملكه، اللهم احفظه واحفظ عساكره، وكن له

عوناً وعضداً، وأمنحه القوة لقمع المرتدين والمنافقين، اللهم احفظ بلادنا وبلاد المسلمين، وانشر الإسلام في ربوع مدننا الإسلامية، وأدم على مدننا نعمة الأمن والعافية، واحفظ عبيدك وحجاج بيت الحرام، وانصر المجاهدين في سبيلك، واحفظ كافة المسلمين في البر والبحر" (٦٨).

كما سجل الرحالة "بيرنير" في رحلته ملاحظاته حول مبنى الكروان المخصص للأميرات المغوليات، وهو مشهور باسم "كروان سراي"، ويسمى كذلك بـ "بيكم سراي"، وقد أخذ هذه التسمية من ابنة الملك "شاهجهان" الكبرى الأميرة "بيكم صاحب"، وهي التي أمرت ببناء الكروان، حيث يتكون من مبنى مربع كبير تملأه العقود والقناطر الجميلة، بالإضافة إلى الحجرات الصغيرة متعددة الأشكال، يحيط بها أروقة كثيرة على طول المبنى، ويشير "بيرنير" إلى أن هذا المكان مع مرور الوقت أضحي ملتقى للعشاق من الأمراء والنبلاء والأثرياء من الفرس والأوزبك (٦٩).

أما في نهاية حديث "بيرنير" عن قلعة "دلهي" الكبيرة والفريدة، يحاول مقارنتها مرة أخرى بمدينة "باريس"، إلا أنه، ومع إقراره بتطور مدينة "دلهي"، يغلب عليه انحيازه لمدينته "باريس" التي يجعلها زهرة مدائن الدنيا بأسرها، مؤكداً في نفس الوقت على مساواة نهضة المدينة وسكانها بـ "باريس"، وقرر بأن سكان "دلهي" في منتصف القرن السابع عشر يقترب من خمس وثلاثين ألف مجموعة بشرية، يضاف إليها النساء والخدم والأطفال (٧٠)، ويتحدث أيضاً عن بعض المهرجانات المثيرة والتي شاهدها بالقرب من "دلهي"، وتشتمل على عروض مثيرة، بحيث لا يوجد لها مثيلاً في عموم الدول الأوروبية، ذلك المهرجان هو "مصارعة الفيلة"، الذي يشاهده الملك والملكات والأميرات ورجال الدولة من شرفات وأماكن مختلفة من أبراج القلعة، أما عامة الناس فيكونون على مقربة من الميدان، وهذه المصارعة تكون في مقابلة فيلان أو أكثر، بينما يركب على الفيل الواحد راكبين يحرضانه على الحركة والقتال، بينما سائس الفيل يحمل بيده قضيباً من حديد على شكل خطافة (عققة)، وفي حال سقوط

أحد من على الفيل يستعاض بآخر، بينما ركاب الفيلة يصرخون ويطلقون أصواتاً مثيرة ومهيجة للفيلة، وقد تكفلت الدولة بنفقات مالية لمن يقتل أثناء المصارعة^(٧١).

* الهولنديون والبرتغاليون في دلهي:

لا شك ونحن نطالع مذكرات الرحالة الفرنسي "بيرنير" حول تواجد النصارى في "دلهي" وبقية المدن الهندية الأخرى، وهم متواجدون بأعداد متفاوتة بين مدينة وأخرى، نلاحظ الحرص الكبير الذي كان وراء اندفاع بيرنير لمعرفة حجم التواجد المسيحي في إمبراطورية المغول المسلمين، ومعرفة موقف أباطرة المغول المسلمين منهم ومن تجمعاتهم، وربما كان يعتقد بأن هؤلاء المغول المسلمين لا يسمحون للمسيحيين بالعيش في بلادهم، وهو الذي لم ير من قبل تعايشاً بين المسلمين والمسيحيين في مدينة باريس، وإذا به أمام واقع عكس ما كان يتصوره من قبل، ونجده هنا يكيل المدائح والثناء على إمبراطور المغول "جهانكير" معتبراً إياه من أعظم أباطرة المغول في الهند، علماً بأنه لم يكن كما يعتقد "بيرنير" بل ربما هو أضعفهم، إلا أن "بيرنير" مدحه لتقريبه للنصارى إليه ورعايته لهم في بعض المذائن الهندية:

"يوجد في مدينة دلهي كنيسة لليسوعيين المسيحيين، وأطلق عليها اسم "الكلية" بنيت تقديراً واحتراماً لعقيدتنا المسيحية، علماً بأن المسيحيين فيها لا يزيدون على ثلاثين عائلة، ومعظمهم تم استدعائهم من قبل الملك "جلال الدين أكبر"، وذلك أثناء تواجد البرتغاليون على شواطئ الهند الغربية، ولم يتوقف الأمر عند ملك المغول برعاية هؤلاء والحفاظ على مصالحهم فحسب، بل أصدر أوامره ببناء كنائس لهم في كل من "لاهور" و"أكرا"، كما حظي النصارى برعاية الملك "جهانكير"، إلا أنهم تعرضوا للاضطهاد في عصر الملك "شاهجهان"، حيث حرّمهم من كثير من امتيازاتهم السابقة، بل وقام بتحطيم كنيسة "لاهور" وهدم بعض أجزاء كنيسة "أكرا"^(٧٢).

أشار "بيرنير" إلى أن القسس والرهبان كانوا مندفعين في عهد "جهانكير" نحو تطوير الكنيسة والعمل على نشر عقيدتهم المسيحية بين الناس، من هنا اعتبره من أفضل

ملوك المغول المسلمين في الهند، كما كشف لنا عن حقيقة تاريخية محفوفة بالمخاطر، ألا وهي احتقار "جهانكير" لقوانين القرآن وتعليم الإسلام، معتبراً ذلك ضرباً من ضروب المدنية والحضارة، في الوقت الذي أبدى "جهانكير" فيه إعجابه بالقوانين والتشريعات المسيحية، بل وأجاز لاثنتين من أبناء شقيقاته باعتراف المسيحية، كما أنه اعتمد سياسة دينية جديدة تقوم على تشجيع انتشار المسيحية في البلاد، وزين البلاط الملكي بالملابس الأوروبية، وبناء على ادعاء "بيرنير" فإن "جهانكير" كان يتمنى الموت على الديانة المسيحية^(٧٣). وأكد المؤرخ الهندي "سري رام شارما" على ما جاء به "بيرنير"، واعتبره ليس راعياً للمسيحيين في الهند فقط، بل وقدم لهم الدعم المالي والمعنوي^(٧٤)، وربما يكون ما استخلصه "بيرنير" حول التحولات العقائدية والفكرية عند "جهانكير" صحيحاً، إذ إن "جهانكير" تأثر بشكل مباشر بسياسة والده الدينية، والتي كانت عبارة عن سياسة توفيقية بين كافة الأديان، حيث أفرزت ما يعرف بـ "الدين الإلهي" الجديد لدى المغول، وبسبب ذلك خضع "جهانكير" في ريعان شبابه لمؤثرات مسيحية حينما اتخذ له أباه مربين ومدرسين يسوعيين أحضرهم إلى البلاط الملكي، حتى أنه في سنة ١٥٩٠م، ذهب إلى الكاردينال اليوناني "ليو جريمون Leo Grimon" إلى أن الأمير سليم "جهانكير" اعتنق المسيحية منذ نعومة أظفاره^(٧٥). وبالنسبة للهولنديين، فتحدث عنهم "بيرنير" بشيء من الاقتضاب، حيث كانوا يقيمون في مدينة "أكرا"، ولهم مصنع خاص يقوم على تجهيز البضائع وشحنها عبر موانئ الهند إلى أوروبا، وغالباً ما تتكون من الملابس والزجاج والشمع والذهب والفضة والأواني الحديدية والنيلة^(٧٦).

* وصف "تاج محل Taj Mahal":

جاء حديث الرحالة الفرنسي "بيرنير" عن تاج محل ليكون حديثه الأوحد عن مدينة "أكرا"، وهي المدينة التي اتخذها "شاهجهان" حاضرة لإمبراطورية المغول المسلمين في الهند، وقد وعد "بيرنير" صديقه بأن يصف له ضريح الإمبراطور "جلال الدين

أكبر" الموجود في "فاتحبور سكري" ولم يف له بوعده، كما أنه لم يتحدث عن قلعة "أكرا" الكبيرة والشهيرة، ولا عن مساجد المدينة وحدائقها الجميلة، بالإضافة إلى أنه أغفل الحديث عن قلعة الحمراء في "أكرا"، ويبدو أن "بيرنير" أخذته جماليات "تاج محل" وجعلته مستغرقاً في فحص روعتها وجمالها الغريب، ومع أن بيرنير كان معجباً بـ "تاج محل" إلا أنه رغم ذلك لم يتمكن من زيارته من الداخل ليطلع على تفصيلاته المعمارية، وهذا ما جعله يتأسف على ذلك، وقد عزي السبب إلى أن المغول يمنعون غير المسلمين من الدخول إلى مبنى الضريح، لذلك لم يتمكن "بيرنير" من إبداء وجهة نظره بمثل هذا الصرح الحضاري الكبير.

إلا أنه حاول أن يوصل بعض المعلومات العامة حول القصر من خلال المعلومات التي حصل عليها من المسلمين، ويقول في هذا الصدد:

"عند الخروج من مدينة "أكرا" باتجاه الشرق، ندخل في شارع عريض وطويل يحيط به سور عريض وطويل أيضاً، وهو الشارع الذي يشكل أحد واجهات الحديقة الملكية الكبيرة، بينما تنتشر البيوت والمساكن الجميلة المعمولة على شكل قناطر وعقود شبيهة إلى حد كبير بتلك الموجودة في مدينة "دلهي"، وهناك بوابة كبيرة وهي جميلة البناء تسمى "كروان سراي" ويقع مقابل السور بوابة أخرى رائعة التصميم والبناء وهي المدخل الرئيسي للحديقة الملكية^(٧٧)، وعند الدخول إلى باحة السراي نقترّب من حديقة تاج محل، لنجد أنفسنا تحت قبة رائعة الشكل والجمال، محاطة بالشرفات والأروقة الكثيرة، ويقع فيها حجرتان إلى يمين وشمال القبة، ترتفعان فوق سطح الأرض بارتفاع ٨-١٠ أقدام^(٧٨)، ثم يشير "بيرنير" إلى قبة تاج محل الكبيرة المصنوعة من الرخام الخالص، والتي تغطي معظم أجزاء القصر، بينما هناك أربع منارات كبيرة تحيط بالقصر، ويشاهد على جدرانه النقوش الإسلامية التي ملأت معظم مناطق "تاج محل"، وقد احتوت النقوش على آيات القرآن الكريم، ويقع تحت

القبة حجرة صغيرة حيث ترقد "ممتاز محل" زوجة الملك "شاهجهان" وتفتح الحجرة مرة واحدة كل سنة^(٧٩).

وحينما نطالع بقية الرحلات الأوروبية إلى مدينة "أكرا" في الفترة التي زارها الرحالة الفرنسي "بيرنير" نجد توافقاً كبيراً في سرد المعلومات حول مبنى تاج محل، علماً بأنهم جميعاً لم يتمكنوا من الدخول إلى داخل القصر نظراً لأن القوانين تمنع غير المسلمين من دخوله، كالرحالة "بيتر مندي Peter Mundy"، الذي مكث في المدينة من سنة ١٦٣١م إلى سنة ١٦٣٢م^(٨٠)، والرحالة الفرنسي "تافرنيه Tavernier"، الذي وصل "أكرا" سنة ١٦٤١م، إلى سنة ١٦٦٥م^(٨١)، والرحالة الفرنسي "مانوسي Manucci" سنة ١٦٥٨م^(٨٢).

واضح من المعلومات الواردة عند "بيرنير" وبقية الرحالة الأوروبيين الآخرين أنها غير كاملة، وربما يرجع السبب وراء ذلك إلى عدم تمكن هؤلاء من الدخول إلى القصر والاطلاع على تفاصيله مباشرة، ومع ذلك كله فقد أشاد الجميع بهذه المنشأة المعمارية الفريدة في العالم، كما نلاحظ أن الرحالة لم يهتموا كثيراً بالاطلاع على تفاصيل القرارات التي اتخذها الملك المغولي "شاهجهان" من أجل بناء "تاج محل"، وكانوا يجهلون على ما يبدو التفاصيل المادية والفنية التي استهلكها المشروع المذكور، كعدد البناء والتكلفة المادية وأنواع الحجارة ومن أين أحضرت وهكذا، في حين كان للتاج عدة أسماء كان يجهلها معظم الرحالة، مثل "الروضة المنورة" و"روضة ممتاز محل" بالإضافة إلى التسمية التي اشتهر بها "تاج محل"^(٨٣)، وقد بناه إمبراطور المغول "شاهجهان" تخليداً لذكرى حبيبته ومعشوقته "أرجمند بانو بيكم" ابنة القائد الفارسي "آصف خان"، رئيس وزراء دولة المغول في عهد "شاهجهان"، وكانت "أرجمند" امرأة جميلة، ولدت أربعة أبناء وثلاث بنات، من أبنائها "عالمكير أورانجزيب"، وتوفيت في مدينة "برهانپور" سنة ١٠٤٠هـ/ ١٦٣٠م، وعمرها تسع وثلاثون سنة، ودفنت هناك، ثم تم نقل جثمانها إلى مدينة "أكرا" أو "أكبر آباد"، حيث يقع مرقدُها الأخير "تاج

محل^(٨٤)، واعتبر علماء الآثار وفن العمارة أن "تاج محل" من المباني التي قل نظيرها في العالم^(٨٥)، وقد استغرق العمل في "تاج محل" أكثر من عشرين سنة، كانت البداية سنة ١٦٣٢م، وانتهى سنة ١٦٤٣م^(٨٦).

ويشير الباحث الهندي "ر. ناث R. Nath"، إلى أن الإمبراطور "شاهجهان" أصدر خمسة مراسيم "فرمانات" لغرض بناء "تاج محل"، ثلاثة منها موجودة في أرشيف "بيكانير Bikaner"، وهي نسخ أصلية، والفرمانات الأخرى فهي من ضمن مقتنيات المهرجا في "جايبور"^(٨٧)، وعلى أن هذه المراسيم الإمبراطورية طلبت من الأمير الراجبوتي "ميرزا راجا جايسنك" أن يعمل على توفير المهندسين والحرفيين والعمال، بالإضافة إلى توفير مواد البناء من مختلف المناطق، ووضعت دولة المغول تحت تصرفه أموالاً كثيرة من أجل تنفيذ هذا المشروع العظيم، فجمع الرخام الأبيض من إقليم "مكرانا" في "راجستان"، والرخام الأصفر من أواسط الهند، وأحضر الكرسنال من الصين، ومن "سيرلانكا" أحضر أحجار اللازورد، وهي زرقاء سماوية اللون، وجلب من البنجاب أحجار كريمة تسمى اليشب، (Jasper)، وأحضر العقيق (Onyx) من بلاد فارس، أما الفيروز (Turquoise) فأحضر من بلاد التبت، واللؤلؤ والمرجان جلب من المحيط الهندي^(٨٨)، وقد قدرت تكاليف البناء بتقادير مختلفة، منها (٠٢٨، ٧٤٨، ٣١)، روبية هندية، وتعادل (٨٠٢، ١٧٤، ٣) جنيه استرليني، وقدرت أيضاً بمبلغ (٣٠،٠٠٠،٠٠٠) جنيه استرليني^(٨٩). ومهما اختلفت تقادير قيمة البناء، فإنها تدل دلالة واضحة على حجم الإنفاق الكبير الذي أنفقته دولة المغول من أجل إنشاء "تاج محل" الذي بقي أثراً دالاً على فخامة وروعة فن العمارة الإسلامية عبر العصور.

ومحصلة الدراسة، فإن دراسة وبحث واقع المدينة الإسلامية، سواء في المشرق الإسلامي أو في مغربه ضرورة من ضروريات البحث والمعرفة، وذلك للوقوف على تطور وازدهار تلك المدن الإسلامية، ناهيك عن تلك المدن الواقعة في شبه القارة الهندية والتي كانت بؤراً للتطور والازدهار في حضارة المسلمين في العالم، بينما تأتي

الرحلة التي قمنا بدراسة ما يتصل بمدينة "دلهي وأكرا" من ضمن الرحلات الهامة التي كشفت لنا عن مدى التطور والتقدم الذي كانت تعيشه المدينة الإسلامية في القرن السابع عشر الميلادي، الأمر الذي يدفع بنا إلى استخلاص العديد من النتائج التي جاءت عقب دراسة "رحلة في إمبراطورية المغول" للرحالة الفرنسي "بيرنير":

- تعتبر الرحلة التي قام بها الرحالة الفرنسي "بيرنير" من أهم الرحلات التي وصلت إلى الهند، والتي تميزت بغزارة مادتها ومعلوماتها التاريخية القيمة، حول المدينة الإسلامية في الهند، كمدينة "دلهي وأكرا ولاهور وكشمير" وغيرها من المدن الأخرى. جاءت الرحلة في مرحلة تاريخية حرجة بالنسبة للمغول، إذ إنها شاهدت التحول السياسي الكبير الذي طرأ على سياسة الدولة المغولية في الهند، حينما مات "شاهجهان" وتولى من بعده ولده "أورانجزيب"، تلك المتغيرات ألقت بظلالها على واقع الحياة السياسية والاجتماعية وحتى العقائدية بالنسبة للمسلمين في شبه القارة الهندية.
- أبرزت الرحلة جوانب التطور والازدهار الذي تمتعت به المدينة الإسلامية في عهد أباطرة المغول المسلمين في الهند، لاسيما التطور الذي شهدته مدينة "دلهي" حاضرة إمبراطورية المغول.
- أوضحت الرحلة مدى تطور علوم وفنون البناء والعمارة والنقوش في دولة المغول، والتي فاقت في عصرها معظم دول العالم في مضممار الزخرفة والنقوش والمنمنمات في الوقت الذي تم فيه تأليف عشرات الكتب والمؤلفات في هذه الفنون المختلفة.
- نقلت الرحلة إلى أوروبا أوجه الرقي للمدينة الإسلامية ومعالمها ومنشآتها المختلفة، كبناء قلعة "دلهي" العظيمة، و"تاج محل" والحدائق الرائعة، والجسور والأبراج، والقصور والمساجد والمدارس.

ملخص الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى التعرف على واقع المدينة الإسلامية في الهند في القرن السابع عشر الميلادي من خلال دراسة رحلة الرحالة الفرنسي "بيرنير" الذي طاف في أرجاء الهند من سنة ١٦٥٦ وحتى عام ١٦٦٨م، وهي من الرحلات الهامة التي كشفت عن حقائق تاريخية غاية في الأهمية، حيث جاءت وثيقة شاهدة على عصر متطور من عصور الحضارة الإسلامية، ونستطيع إيجاز عناصر وأهداف الدراسة بالأمور التالية: أولاً: التعريف بالرحلة الفرنسي الشهير "بيرنير"، ورحلته "رحلات إلى إمبراطورية المغول ١٦٥٦-١٦٦٨م". والتعرف على المدينة الإسلامية من وجهة نظر أوروبية معاصرة.

ثانياً الاطلاع على دور أباطرة المغول المسلمين في الهند في تنمية وتطوير المدن الإسلامية، وجعلها الأكثر تطوراً في العالم في ذلك العصر.

ثالثاً: وهل شكل التطور السياسي والازدهار الاقتصادي لإمبراطورية المغول دوراً في نهضة المدينة الإسلامية.

Abstract:

This paper aims to deal with the historical studies of the Islamic city development in South Asia (India), according to the Bernier travels in the Mughal empire from 1656-1668, which occupied a very important place among other travels, in the 17th century. Therefore, the voyage of Bernier is very fertile in historical information about the Mughal's Delhi and Agra. A discussion is made clearly to improve the following manners:

Firstly: Defining the French voyage (travels in the Mughal empire, 1656-1668), and to show how this travel become a very important historical document,

Secondly: The role of the Mughal emperors in the development and progress of Islamic cities in south Asia.

Thirdly: To give a vivid in formations about the progress of the Mughal government in various fields: political, economical, and militarily, which were the direct reason for promotion of architecture sciences, such as painting, ornaments, brocades, constructions and styles.

مصادر ومراجع الدراسة

- (1) Sharma, Mughal Empire in India, (agra), pp. 152-1 54, B Prasad, History of Jahangir, (Allahabad, 1973), p.427.
- (2) Saksena, History of Shahjahan of Delhi, (Allahabad, 1973), Introduction, p. xxi.
- (3) Ibid, p. xxi.
- (4) Prasad, op-cit, p. 433.
- (5) Saksena, op-cit, p. xxiii.
- (6) Rekha Mesra, Women in Mughal India, (Allahabad, 1967), p. 76.
- (7) Saksena, op-cit, p. xxix.
- (8) Rekha, op-cit, p. 77.
- (9) Muhamad Basheer, Judicial System of the Mughal Empire, (Karachi 1978), p.31.
- (10) Saksena, op-cit, p.xxix.
- (11) Bernier, Travels in the Mughal empire, A. D. 1656-1668, (NewDelhi, 1983), p.xx.
- (12) Bernier, ibid, p.xx.
- (13) Ibid, p. xx.
- (14) Ibid, p. xxi
- (15) Ibid, p.300-349.
- (16) Ibid, pp.350-357.
- (17) Ibid, pp.358-382.
- (18) Ibid, pp.383-384.
- (19) Ibid, pp.393-431.
- (20) Ibid, p230.
- (21) Ibid, pp 1-3.
- (22) Ibid, p240.
- (23) Ibid, pp283-284.
- (24) Ibid, p240.
- (25) Ibid, p241.
- (26) Ibid, p241. انظر، عبد الحي الحسني، نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن ، الهند، ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م، ج٦، ص ٣٧٥-٣٧٦.
- (27) Bernier, p244.

- (28) Cambridge History of India, (Delhi, 1965) vol.3 ,p.578.
- (29) Bernier, op-cit, pp24 1-242.
- (30) Ibid,p242.
- (31) Ibid,p243.
- (32) Fanshawe, h. c, Shahjahans Delhi-Past and Present, (Delhi, 1902& 1979) pp 54-55.
- (33) Ibid, pp60-61.
- (34) Ibid, pp61-62.
- (35) Bernier, op-cit, p256.
- (36) Fergusson, History of Indian Architecture, editing 1876.
- (37) Ibid, p22.
- (38) Ibid, pp17-28.
- (39) Bernier, op-cit, pp256-257.
- (40) Ibid, p259.
- (41) Ibid, p258.
- (٤٢) عبد الحي، المصدر السابق، ج٦، ص ٢٨٣-٢٨٤. بعد وفاة شاه عباس الصفوي تولى بعده حفيده صفي شاه الصفوي، وافتتح عهده بالظلم والاضطهاد والتعدي على حقوق الناس، مما اضطر علي مردان إلى ترك قندهار واللجوء إلى الهند، واستقبله "شاهجهان" في دلهي سنة ١٠٣٧هـ / ١٦٢٤م، وحظي عنده بمكانة مرموقة ليتولى ولاية كشمير والبنجاب وكابل، ومات في كشمير سنة ١٠٦٧هـ / ١٦٥٧م، وترك مآثر معمارية كثيرة في الهند، ولأنه صمم قناة دلهي فقد سميت القناة باسمه.
- (43) Bernier, op-cit, pp259-260.
- (44) Fanshawe, op-cit, pp28-29.
- (45) Tavernier, Travels in India, tr. into English by V. Ball, (London,

- 1899)vol. 1,p400.
- (46) Bernier, op-cit,pp260-2 70.
- (47) Ibid,p269.
- (48) Tavernier,op-cit,vol. 1,p400.
- (49) Fansha we, op-cit,pp34-36.
- (50) Ibid,pp37-38.
- (51) Bernier,op-cit,pp265-267.
- (52) Abulfadl,Ain-l-Akbary,vol. 1,p44.
- (53) Manucci, N. Storio do Mogal (1653- 1708), tr. by W Irvine (London, 1907), vol.ii,p330.
- (54) Delaet, J, The empire of the great Mogal, tr. by J. S .Hoyland & Banerji (Bombay, I 928),pp37-39.
- (55) Delaet,p40.
- (56) Fitch, R. En glands pioneer to India and Burma, ed. by J Horton (London, 1899)pp. 126-165.
- (57) Rekha Misra, op-cit,pp76-78.
- (58) Bernier, p267.
- (59) Ibid,p2 72.
- (60) Ibid,pp. 273-274.
- (61) Abdal Hai, India during Muslim rule, (lucknow, India, I 977),p. 155.
- (62) Fanshawe,op-cit,p39.
- (63) Abdul Hai,op-cit,p.161.
- (64) Saksena,op-cit,pl 64.
- (65) Bernier,op-cit,pp.278-279.
- (66) Ibid,p280.
- (67) Fanshawe, op-cit,p46.

(68) Ibid,p46.

(69) Bernier,op-cit,p281.

(70) Ibid,p282.

(71) Ibid,pp.276-278.

•• وعند مراجعتنا للمصادر المعاصرة نلاحظ أن تحسن العلاقات المغولية البرتغالية كان في عهد الإمبراطور "أكبرن"، وهو الذي ملأ بلاطه بالقسس والرهبان البرتغال، ففي سنة ١٥٧٩م، بعث الإمبراطور جلال الدين محمد أكبر أول بعثة دبلوماسية إلى البرتغاليين في ميناء جوا (Goa)، حيث أرسلت إلى القائد البرتغالي (St. Paul)، وقد ترأس البعثة المغولية الشيخ عبد الله، الذي حمل رسالة إلى البرتغاليين يطلب منهم إرسال بعض القسس إلى البلاد الإمبراطوري في دلهي، كذلك طلب إرسال كتب هامة في القانون وطلب الإمبراطور نسخة من الإنجيل (Gospel).

((Akbar Nama, E & D, vols. VI, P. 32))

- من جانبهم بعث البرتغاليون بعثتهم الدبلوماسية إلى البلاط المغولي في (٧ نوفمبر ١٥٧٩م)، حيث اختار القائد البرتغالي لرئاسة هذه البعثة كل من:
- ردولف أكوافيفا (Rudolf Aquaviva)،
- أنتوني مونسيرات (Antony Monserrate)،
- فرانسيس هنريكويز (Francis Henriques)،

((Akbar Nama, VI, 27))

The object of the mission was the Glory of the
CHURCH and the benefit of Portu gals.

((Sharma, p152))

•• في سنة ١٥٩٠م أرسل جلال الدين أكبر البعثة المغولية الثانية إلى البرتغاليين في ميناء جوا، وبيّغى تعزيز الروابط والعلاقات بينه وبين البرتغاليين الذين بدأوا يحققون مكاسب اقتصادية كبيرة نتيجة إنشائهم مصانع في موانئ الهند، كما

حرص إمبراطور المغول على إحضار علماء وقسس جدد من جانب البرتغاليين، وذلك بهدف الاجتماع بهم والتحاور معهم حول أفضل السبل في التعمق بدراسة الأديان والتعاليم المسيحية. (أكبر نامة، ج ٥، ص ٤٤-٤٧).

نزولاً عند رغبة الإمبراطور المغولي "أكبر"، قام البرتغاليون بإرسال اثنان من القساوسة إلى بلاط المغول في دلهي، وهؤلاء القسس هم:

- إدوارد ليوتون (Edward Leiton)

- كريستوفر دي فيكا (Christopher Di Vega)

ووصلوا مدينة لاهور سنة ١٥٩١م.

Smith, Oxford, pp.254-255 . Sharma, 155

** في سنة ١٥٩٤م، أرسل جلال الدين أكبر بعثة المغول الثالثة إلى البرتغاليين في ميناء جوا، حيث أبدى إمبراطور المغول رغباته لدى البرتغاليين في إرسال المزيد من القسس والعلماء الذين تحتاج إمبراطورية المغول إلى معارفهم وعلومهم، وقد وجد البرتغاليون في ذلك فرصة، ليس فقط في تحقيق مكاسب دينية، بل تحقيق المزيد من المكاسب السياسية والاقتصادية، فأرسلوا إلى البلاط المغولي:

- الأب جيرومي قيصر (Father Jerome Xavier)

- الأب فرانسيس قيصر (Father Francis Xavier)

- الأب مانويل بنهيرو (Father Emmanuel Pinheiro)

- بندكت دي قوس (Bendict De Goes)

((MacLagan, sir edward, The Jesuits and the great mogul, ((London, 1932)), p.50

(72) Ibid, pp.286-287

(73) Ibid, pp.287-288.

(74) Sharma, S. R. Religious policy of the Mughal emperors, (Lahore, 1975) pp.74-76.

(75) Beni Prasad, op-cit, p.37.

- (76) Bernier,p292.
- (77) Ibid,pp293-294.
- (78) Bernier,p295.
- (79) Ibid,p298.
- (80) Peter Mundy, Travels of Peter Mundy, (Temple, 1914)vol.ii,pp212-213.
- (81) Ibid,pp90-91.
- (82) Manucci,op-cit, vol.i,pp. 183,360.
- (83) R.Nath, Imperial firman relating to the construction to the Taj Mahal, mentioned on the "Muslims in India a miscellany, vol. iii, ed. by Irfan Habib, (Lahore, n. d)p. 158.
- (٨٤) عبد الحي، المصدر السابق، ص ٨٧.
- (85) Saksena, op-cit,pp.264-265.
- (86) Grewal,B. Taj Mahal,(London, 1986),p. 11.
- (87) Nath,op-cit,pp. 163-166.
- (88) Ibid, p.166 see also john Lall, Taj Mahal and the glory of Mughal Agra, 1982, and Carrol, D The Taj Mahal, 1972, New York.
- (89) Grewal op- cit, p.10.